الكتاب

عمرو بن بحر الجاحظ

١٦٠ ـ ٢٥٥ هـ

تميز العصر العباسي الاول بالثراء والرخاء . والانفتاح على ثقافات مختلفة . والاقبال على العلوم والآداب . والتوجُّه الى التأليف والتصنيف والترجمة . وقد نبغ رجالٌ عظام في شتى المعارف . رفدوا المكتبة العربية بتراث قيِّم تعاقبت الاجيال على الاحتفاظ به والافادة منه . ويُعد الجاحظ ـ وهو من روّاد الأساليب الرفيعة في الكتابة ـ من ابرز هؤلاء الرجال العظام الذين خلّدوا انفسهم بعطائهم الفكري من خلال الكنوز النافعة التي خلفوها .

مولده ونشأته :

أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي . لُقّب بالجاحظ لجحوظ عينيه ولد في البصرة حوالي سنة ١٦٠ للهجرة . وتوفي ابوه وهو صغير . وفي مدينته التي كانت آنذاك محج طلاب المعرفة تعلّم مبادىء القراءة والكتابة في أحد كتاتيبها . وحينما اصبح يافعاً أخذ يتردّدُ على حلقات العلم التي تعقد في المساجد . ويختلف الى سوق المربَد . يتلقّى الفصاحة من شفاه العرب الذين يفدون الى هذه السوق قال ياقوت الحموي : « سمع من أبي عبيدة . والأصمعي . وأبي زيد الانصاري . وأخذ النحو عن الأخفش وكان صديقه . وأخذ الكلام عن النَظام . وتلقّف الفصاحة من العرب شفاهاً بالمربد »(٩٣٣) وأفاد من أبي يوسف يعقوب بن ابراهيم صاحب ابي حنيفة . وصالح بن جناح اللخمي . وثُمامة بن أشرس النميري . ويزيد بن هرون . والسريّ بن عبدويه . والحجّاج محمد بن حمّاد بن سلمة . وسواهم ... وكان مفرطاً في القراءة . يكتري دكاكين الوراقين . ويعتكفُ فيها . ليقف على ما يأتي اليها من كتب . ويستوعبُ معارفها . ويحفظ مايروق له منها . ولم يبخل بالمال حينما يتوفر لديه لشراء الكتب قال محمد بن سليمان الجوهري : « كنا نصحبُ الجاحظ على سائر احواله من جِدّ وهزل .قال : فخرجنا يوماً لنزهة .فبينما نحن على باب جامع البصرة ننظر شيئاً أردناه . اذ عارضتْ امرأة معها أوراق مقطعة . فعرضتْ علينا فلم نجد فيها طائلاً. فتركناها وانصرفنا .

(٩٣٣) معجم الادباء ٦ : ٥٩

وتخلّفَ معها الجاحظ ونحن ننتظره فأطال . ثم رأيناه قد وزن لها شيئاً . وأخذ الاوراق وقال : انتظروني ومضى بها الى منزله . فلما عاد اخذنا نهزأ به ويقول : فُزتَ بقطعةٍ من العلم وافره . وضحكنا فقال : أنتم حمقى والله . انّ فيها ما لا يوجدُ الاّ فيها . ولكنكم جهالٌ لاتعرفونَ النفيسَ من الخسيس »(٦٣٤) . وقال ابو هفّان : « لم أر قطُّ ولا سمعت مَنْ أحبَّ الكتبَ والعلومَ اكثرَ من الجاحظ . فإنّه لم يقع بيده كتابٌ قطُّ الاّ استوفى قراءته كائناً ماكان »(٦٣٥)

والى جانب طلب العلم والمعرفة كان يلتمس اسبابَ العيش عن طريق العمل . وقد قيل : انه كان يبيعُ الخبزَ والسمكَ على ضفة نهر صغير بالبصرة يُعرفُ بسيحان . ويبدو أنّ أمه كانت في باديء امره تتولى الانفاق عليه . وقد رُوي انها ضاقتْ به حين رأته منهمكاً في اقتناء الكتب والجلوس اليها ساعات طوالا . فطلبَ منها يوماً طعاماً . فجاءته بطبق مليء بكراديس أودعها البيت « فقال : ماهذا ؟ قالت هذا الذي تجيءُ به . فخرج مغتماً . وجلس في الجامع ومُويس بن عمران جالس . فلما رآه مغتماً قال له : ماشأنك ؟ فحدّثه الحديثَ . فأدخله المنزلَ وقرّب اليه الطعامَ واعطاه خمسين ديناراً فدخل السوق . واشترى الدقيقَ وغيره . وحمله الحمالون الى داره . فأنكرت الام ذلكَ وقالت من اين لكَ هذا ؟ قال : من الكراريس التي قدّمتِها اليَّ »(٦٣٦) . ولكن هذه الحالة لم تدم . اذ انهالت عليه الهدايا والعطايا بعد انْ اشتهر أمره وعرف بين كتاب عصره بقلمه الرفيع وانشائه البديع . وحينما زار بغداد حضر مجلس المأمون . فنال اعجابه واثنى عليه وقرّبهُ وولاه رئاسة ديوان الرسائل . وكان هذا المنصب مهماً في الدولة لايتولاه الاّ مَنْ له مقدرة كبيرة ومعرفة واسعة بشؤون الكتابة . ولكنّ الجاحظ لم يبق فيها اكثر من ثلاثة ايام . اذ بادر الى الاستعفاء معتذراً للخليفة . فأعفاه . وانصرف الى التأليف الذي اكسبه شهرة عظيمة وجعله ذا مقام محمود عند أرباب الدولة والمتنيين بالثقافة . وكان في اثناء ذلك يتنقّلُ بين البصرة وبغداد وسامراء . وقام برحلات الى ديار الشام وزار دمشق وانطاكية . وكان النّاسُ يتفاخرون بصداقته ومجالسته لحسن عشرته ووافر علمه وظرافة نوادره . ويعتزون بكتبه ويفرحون حينما تُوشّحُ بأسمائهم . قال : « أهديت كتاب الحيوان الى محمد بن عبدالملك فاعطاني خمسة آلاف دينار . واهديتُ كتاب

---

(٦٣٤) أمراء البيان ص ٢٨٧

(٦٣٥) معجم الادباء ٦ : ٥٦ .

(٦٣٦) طبقات المعتزلة لابن المرتضى ص ٦٨ .

البيان والتبيين الى ابن أبي دواد فأعطاني خمسة آلاف دينار. وأهديتُ كتاب الزرع والنخل الى ابراهيم بن العباس الصولي فأعطاني خمسة آلاف دينار ». (٦٣٧)

اعتنق الجاحظُ مذهبَ الاعتزال ونصره في كتاباته. وخالف أستاذه ابراهيم بن سيّار النظام ببعض الآراء. وأيده في هذه الآراء طائفة من المتكلمين عرفوا بالجاحظية نسبةً اليه. (٦٣٨)

وكان صديقاً مخلصاً للوزير محمد بن عبدالملك الزيّات. وحينما نُكب هذا الوزير وقُبضَ عليه زمن المتوكل سنة ٢٣٣ هـ « هرب الجاحظ. فقيل له: لِمَ هربتَ ؟ فقال: خفتُ أنْ أكونَ ثاني اثنين اذ هما في التنور! يُريد: ماصُنع بمحمد بن عبدالملك من ادخاله تنوراً فيه مسامير كان هو صنعه ليعذّبَ الناسَ فيه. فَعُذِّبَ به حتى مات »(٦٣٩)

استقر في البصرة. وطالت به الحياة. وأُصيب بالفالج والنقرس. (٦٤٠) قال المبرد « دخلتُ على الجاحظ في آخر ايامه وهو عليلٌ. فقلتُ له: كيف أنتَ ؟ فقال: كيف يكونُ من نصفه مفلوجٌ ولو نشرَ بالمناشير لما أحسّ به. ونصفه الاخر منقرسٌ. ولو طار الذباب بقربه لآلمه. والأمر في ذلك أني قد جزتُ التسعين وأنشدنا:

أترجو أنْ تكونَ وأنتَ شيخٌ كما قد كنتَ أيامَ الشبابِ
لقد كذبتك نفسكَ ليسَ ثوبٌ خليقٌ كالجديد من الثيابِ(٦٤١)

وأدركه الموت سنة ٢٥٥ للهجرة. وقيل وقعت عليه كتبه وهو شيخ ضعيف قد جاوز التسعين فقضت عليه.

أخلاقه:

كان الجاحظُ يمتلك شخصيةً قويةً وارادةً فذّةً. وكان متفائلاً يبدو عليه السرور. بسيطاً. متواضعاً. يخالط الناس جميعاً سواء كانوا اغنياءَ ام فقراءَ. حريصاً على مواعيده واوقاته. وفياً لاصدقائه. صادقاً في أقواله. محباً للنظام.

(٦٣٧) معجم الادباء ٦ / ٧٦
(٦٣٨) ينظر الملل والنحل للشهرستاني ص ٧١
(٦٣٩) أمالي المرتضى ١ : ١٩٥
(٦٤٠) الفالج: الشلل. النقرس: نوع من مرض المفاصل.
(٦٤١) نزهة الالباء ص ١٣٩. تاريخ بغداد ١٢ : ٢١٩.

صبوراً متقناً لعمله ومتفانياً فيه . بعيداً عن الفوضى وما يُقلق الانسان . متجنباً الحاسدين والموتورين . ولم يكن متزمتاً . يقوم بما فرض عليه الاسلام من واجبات . يرفق بالضعفاء حتى يقووا وبالجهلاء حتى يتعلموا . يبذل جهده في رفع شأن المسلمين . ويحبب اليهم دينهم ودنياهم ليستقيموا امة عزيزة فاضلة ذات شأن عظيم .(٦٤١)

تهكمه وتندره :

عُرف الجاحظ بالظُّرف والمفاكهة والمداعبة والتندر . واخبارهُ في ذلك كثيرة نجدها مبثوثة في كتبه ورسائله . وقد استطاع أن يجعل ظِلَّهُ خفيفاً عند الجميع مع انه كان دميمَ الوجه قبيحَ الشكل جاحظَ العينين .

لقد كان مرحاً . مقتدراً على الضحك والاضحاك . متمكناً من تلطيف النفوس وابعاد السأم والضجر عنها . وتهذيبها . والانسان يتعلم بالضحك اكثر مما يتعلم بالتجهم والعبوس . ومثال ذلك ماجاء في قصة محمد بن أبي المؤمل . قال الجاحظ : « اشترى مرّةً شبوطةً .(٦٤٣) وهو ببغداد . وأخذها فائقةً عظيمةً . وغالى بها . وارتفع في ثمنها . وكان قد بَعُدَ عهده بأكل السمك ـ وهو بصريٌّ لا يصبر عنه ـ فكان قد اكبر أمر هذه السمكة . لكثرة ثمنها . ولسمنها وعظمها . ولشدة شهوته لها . فحين ظنّ عند نفسه انه قد خلا بها . وتفرّد بأطايبها . وحسرَ عن ذراعيه . وصمد صَمْدَها . هجمتْ عليه ومعي السِدريُّ .(٦٤٤) فلما رآه رأى الموتَ الأحمر . والطاعون الجارف . ورأى الحتم المقضيّ . ورأى قاصمة الظهر . وأيقنَ بالشرّ . وعلم أنه قد ابتلي بالتنين .... فلما أكل السِّدريُّ جميع أطايبها ... ولم يبق في يده مما كان بأمله في تلك السمكة... تولّد الغيظ في جوفه... وتمّ عزمُه في أن لا يؤاكل رغيباً أبداً .

---

(٦٤٢) للتوسع ينظر كتاب الفكر التربوي عند ابن المقفع والجاحظ وعبدالحميد الكاتب ص ٢٥٣ ـ ٢٨٦ ، وأمراء البيان ص ٢٩١ ـ ٢٩٤ ، والجاحظ في حياته وادبه وفكره ص ١٥٢ .

(٦٤٣) الشبوط : نوع من السمك ، دقيق الذنب ، عريض الوسط ، لين المس .وفي كتاب الحيوان للجاحظ شرح وافٍ عنه .

(٦٤٤) السدري: محمد بن هشام بن أبي خميصة ، شاعر مقل ، كان يصحب الجماز ، وعبدالصمد بن المعذل ، والجاحظ وأدباء البصرة (معجم الشعراء ص ٣٧٥ ، وينظر ذيل الأمالي للقالي ص ١٣٠).

ولا زهيداً . ولا يشتري سمكة ابداً . رخيصة ولا غالية . وان اهدوها اليه ان لا يقبلها . وان وجدها مطروحة لا يمسها »(٦٤٥) .

موقفه من الشعوبية :

شاعت حركة الشعوبيين في العصر العباسي الاول . ووقف الخلفاء منهم ولاسيما المهدي موقفاً متشدداً . والى جانب الخلفاء وقف عدد من الادباء والعلماء يحاربونهم بألسنتهم ويردونهم بالحجج والبراهين . وكان الجاحظ واحداً منهم . فهو يحب العرب ويكره من يعاديهم او يطعن فيهم ، لذلك نراه يهبُّ بما أوتي من بيانٍ وحكمةٍ يقاتل الشعوبيين ويستصغرهم ويحط من قدرهم . ومن يرجع الى كتاب البيان والتبيين وكتاب الموالي والعرب(٦٤٦) يستجلي ذلك بوضوح . يقول مثلاً : « واعلم انك لم ترَ قوماً قط أشقى من هؤلاء الشعوبية ولا اعدى على دينه . ولا أشد استهلاكاً لعرضه . ولا أطول نصباً . ولا أقل غنماً من أهل هذه النحلة . وقد شفى الصدور منهم طول جثوم الحسد على اكبادهم . وتوقد نار الشنان في قلوبهم . وغليان تلك المراجل الفائرة . وتسعر تلك النيران المضطرمة ولو عرفوا اخلاق اهل كل ملةٍ . وزيّ أهل كل لغةٍ وعللهم . على اختلاف شاراتهم وآلاتهم . وشمائلهم وهيئاتهم . وما علّه كل شيء من ذلك . ولمَ اجتلبوه ولم تكلفوه . لأراحوا انفسهم . ولخفت مؤونتهم على من خالطهم »(٦٤٧) .

مؤلفاته :

كان الجاحظ نابغة عصره . لم يدع باباً من ابواب المعرفة الا طرقه . وأصدق مايوصف به انه موسوعة او دائرة معارف . فقد بلغت مؤلفاته مايقارب المئة والستين .(٦٤٨) ولعل في كلام سبط ابن الجوزي مبالغة حين قال : ألف خمسين وثلاثمئة مؤلف بين رسالة في بضع صفحات وكتاب في بضعة مجلدات وذكر انه رآها في اول القرن السابع في مشهد ابي حنيفة في بغداد .(٦٤٩)

---

(٦٤٥) البخلاء ص ٢٢٨ .
(٦٤٦) ينظر كتاب : الجاحظ حياته وآثاره ص ٢٣٣ .
(٦٤٧) البيان والتبيين ٣ : ٢٩ .
(٦٤٨) ينظر : معجم الادباء ٦ : ٧٥ ـ ٧٨
(٦٤٩) أمراء البيان ص ٣٨١ .

إن مؤلفات الجاحظ مفيدة ونافعة . بعضها رسائل أشبه ما نسميها اليوم بالبحوث . مثل : التربيع والتدوير . مناقب الترك . المعاش والمعاد . كتمان السر وحفظ اللسان . فخر السودان على البيضان . في الجد والهزل . في نفي التشبيه . في كتاب الفتيا . الى أبي الفرج بن نجاح الكاتب . فصل بين العداوة والحسد . صناعات القواد . في النابتة . كتاب الحجاب . مفاخرة الجواري والغلمان . ذم أخلاق الكتاب . كتاب البرصان .. الحنين الى الاوطان . كتاب التبصر بالتجارة كتاب البلدان . كتاب النساء . كتاب القيان . كتاب حجج النبوة . فضل هاشم على عبد شمس ... وبعضها الآخر كتب في مجلدٍ واحدٍ أو عدّة مجلدات . مثل : الحيوان . والبيان والتبيين . والبخلاء . والعثمانية . والمحاسن والأضداد . والبرصان والعرجان والعميان والحولان ...

لقد وقعت كتبه ورسائله موقع الاستحسان والرضا عند القراء والباحثين على مر العصور السابقة . ولا تزال تُراجع وتُعتمد في الدراسات الأدبية والعلمية والسياسية والاجتماعية ؛ لأنها رصينة وموثوقة . ومكتوبة بلغة سليمة وأسلوب واضح وممتع ولطيف .

نثره وأسلوبه :

كان الجاحظ كاتباً بارزاً مشهوراً في جميع الأوساط في العصر العباسي . وبقيت شهرته الى يومنا هذا . له طريقة خاصة عُرف بها . امتدت أثارها الى آماد بعيدة . يتداولها جيلٌ بعد جيلٍ . حتى أصبحتْ مدرسةً من مدارس الكتابة لها خصائصها ومميزاتها . يعود اليها الباحثون في دراساتهم ينهلون منها المواد الأولى في الإنشاء العربي . ومن أبرز صفات هذه الطريقة :

١ ـ مطابقة الكلام لمقتضى الحال . فهو يقول : « ينبغي للمتكلّم أنْ يعرفَ أقدار المعاني . ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات . فيجعلَ لكلّ طبقةٍ من ذلك كلاماً . ولكلّ حالةٍ من ذلك مقاماً . حتى يقسمَ أقدارَ الكلام على أقدار المعاني . ويقسمَ أقدارَ المعاني على أقدار المقامات . وأقدارَ المستمعين على أقدار تلكَ الحالات(٦٥٠) » .

(٦٥٠) البيان والتبيين ١ : ١٣٨ ، وينظر الحيوان ٣ : ٤٣ .

٢ ـ البيان والابتعاد عن حوشي الكلام وغريبه ووضوح الدلالة . فهو يقول : « على قَدْرِ وضوح الدلالة وصواب الإشارة . وحسن الاختصار . ودقّةِ المدخل . يكون إظهار المعنى . وكلما كانت الدلالة أوضحَ وأفصحَ . وكانت الاشارةُ أبينَ وأنورَ . كان أنفعَ وأنجحَ . والدلالة الظاهرة على المعنى الخفيّ هو البيان الذي سمعتَ الله عز وجلّ يمدحه . ويدعو اليه . ويحثُّ عليه ... والبيانُ اسمٌ جامعٌ لكلّ شيء كشفَ لكَ قِناعَ المعنى . وهتَكَ الحجابَ دون الضمير . حتى يُفضيَ السامعُ الى حقيقتِهِ . ويهجم على محصولِهِ كائناً ما كان ذلك البيانُ . ومن أيّ جنس كان الدليل . لأنّ مدارَ الأمرِ والغايةَ التي إليها يجري القائل والسامع . إنما هو الفَهْمُ والإفهامُ . فبأيّ شيء بلغتَ الإفهامَ وأوضحتَ عن المعنى . فذلك هو البيان في ذلك الموضع »(٦٥١)

٣ ـ الاستطراد . وأراد به دفعَ المللِ والسآمةِ عن القاريء . وتفكيهاً . للنفس وترويحاً لها من التعب والعناء . وتنشيطاً لمتابعة القضايا والمسائل التي يتناولها بالبحث والاستقصاء . جاء في كتاب الحيوان قوله : « قد عزمتُ ـ والله الموفّق ـ أني أوشّحُ هذا الكتاب وأفصّلُ أبوابه بنوادر من ضروب الشعر وضروب الأحاديث ليخرج قاريءُ هذا الكتاب من باب الى باب ومن شكل الى شكل، فاني رأيت الأسماع تملُّ الأصوات المطربة والأغاني الحسنة والأوتار الفصيحة إذا طال ذلك عليها . وما ذلك الاّ في طريق الراحة التي إذا طالت أورثت الغفلة »(٦٥٢)

٤ ـ مزج الجد بالهزل والضحك والمرح . لتحبيب القراءة والمتابعة وشحذ الذهن وتجديد النشاط . قال : « وليس ينبغي لكتب الآداب والرياضيات أن يُحملَ أصحابها على الجد الصرف . وعلى العقل المحض . وعلى الحقّ المرّ . وعلى المعاني الصعبة التي تستَكِدُّ النفوسَ وتستفرغُ المجهودَ . وللصبر غاية وللاحتمال نهاية . ولا بأسَ أن يكون الكتاب موشّحاً ببعض الهزل »(٦٥٣)

٥ ـ العناية بالالفاظ وتركيب العبارات والجمل بلا تكلّف أو تصنُّع . فهو يقول : « إذا كان المعنى شريفاً واللفظ بليغاً . وكان صحيحَ الطبع . بعيداً من الاستكراه . ومنزّهاً عن الاختلال . مصوناً عن التكلُّف . صنعَ في القلوب صنيعَ

---

(٦٥١) البيان والتبيين ١ : ٧٥

(٦٥٢) الحيوان ٣ : ٧

(٦٥٣) رسالة في النساء ، مجموعة رسائل الجاحظ ط الرحمانية ـ القاهرة ١٩٣٣ ، ص ٣٧٥ .

الغيث في التربة الكريمة . ومتى فَضلتْ على هذه الشريطة . ونفذتْ من قائلها على هذه الصفة . أصحبها الله من التوفيق ومنحها من التأييد . ما لا يمتنع من تعظيمها صدورُ الجبابرة . ولا يذهل عن فهمها معه عقول الجهلة »(٦٥٤)

٦ ـ التلوين الصوتي أو الموسيقي الذي يعتمد على السجع . يأتي عفو الخاطر . والمزاوجة والترادف والجمل الاعتراضية مثل قوله : « لا أعلمُ قريناً أحسنَ موافاةً . ولا أعجل مكافأة . ولا أحضرَ معونةً . ولا أخفُّ مؤونة . ولا شجرةً أطولَ عمراً . ولا أجمعَ أمراً . ولا أطيبَ ثمرة . ولا أقربَ مُجتنى . ولا أسرعَ ادراكاً . ولا أوجدَ في كلّ ابّانٍ من كتاب . ولا أعلمُ نِتاجاً في حداثةِ سنهِ . وقرب ميلادِه . ورُخص ثمنه . وإمكانِ وجوده . بجمعٍ من التدابير العجيبة . والعلومِ الغريبة . ومن آثار العقولِ الصحيحة . ومحمودِ الأذهان اللطيفة . ومِنَ الحِكَم الرفيعةِ . والمذاهب القويمة . والتجارب الحكيمة . ومن الاخبارِ عن القرون الماضية . والبلاد المتنازحةِ . والأمثالِ السائرة . والأمم البائدة . ما يجمع لك الكتابُ(٦٥٥) »

لقد رُزِقَ أسلوبه القبول في القلوب . لصدقه وواقعيته ودقّته وتوافقه بين اللفظ والمعنى . ولذلك اكتسب الخلود . واستحقّ أن يكون المعلم الاول في الإنشاء العربي . وخيرُ ما نختتم هذه الدراسة الوجيزة عن سيرته وانشائه الأبيات الآتية من نظمه :(٦٥٦) :

يطيبُ العيشُ أنْ تلقى حكيماً غذاهُ العلمُ والظنُّ المصيبُ
فيكشفُ عنكَ حيرةَ كلّ جهلٍ وفضلُ العلمِ يعرفه الأديبُ
سقامُ الحرصِ ليس له شفاءٌ وداءُ الجهلِ ليس له طبيبُ

---

(٦٥٤) البيان والتبيين ١ : ٨٣
(٦٥٥) الحيوان ١ : ٤٢ .
(٦٥٦) تاريخ بغداد ١٢ : ٢١٥ .